

المجلد: 08/ العدد 02 ديسمبر (2024)، ص.ص. 141-150

القضايا النقدية في المقامة الأندلسية -دراسة تحليلية لنماذج مختارة-

Critical Issues in Andalusian Maqamat: An Analytical Approach to Select Models

قازي خديجة

khadidja.neggazi@univ-alger2.dz

جامعة الجزائر 2

مخبر أطلس الثقافة الشعبية

(الجزائر)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/09/05

تاريخ الاستلام: 2024/07/02

ملخص:

أخذ التراث الأندلسي مكانا عليا في تاريخ الثقافة العربية الإسلامية، والمقامات هي إحدى الفنون الثرية التي احتواها الموروث الفكري العربي لما لها من مكانة قيمة في معالجة قضايا الأمة، غير أنه لم يظهر في الأندلس كتاب مختص بهذا الفن كما هو الحال عند المشاركة وإنما برز مقاميتون خصوا مقاماتهم بالنقد وتميزوا بذلك. ومنه سيكشف العمل وفق آليات التحليل والاستقراء عن الآليات الفنية التي تنهض عليها المقامة الأندلسية، كما أنه سيبيّن الصبغة النقدية التي اتسمت بها هذه المقامات، لتخلص الدراسة بعد هذا العرض أنه لكل منطقة جغرافية خصائصها، فالمقامة في الأندلس تختلف عما هي عليه في المشرق العربي، وأصحاب المقامة في الأندلس استعملوا هذا الفن بما لم يستعمله المشارقة فقد جعلوا منه وعاء لصب آرائهم النقدية وتميزوا بذلك. ثم إن النقد لا يخدم المقامة فهو عبارة عن أحكام ومعايير تنسب بالمنطق والعقلنة وهذا ما يحتاج إلى لغة أكثر علمية، ولأن المقامة تعتمد في بنائها على مختلف ألوان البيان والبدع فهي لا تستطيع معالجة مختلف القضايا النقدية أو الخروج بآراء دقيقة.

كلمات مفتاحية: المقامة الأندلسية، النقد، ابن فتوح، ابن الشهيد، الترقسطي.

Abstract: The Andalusian cultural heritage, renowned for its depth and diversity, holds a significant place in Arab-Islamic culture, particularly through the maqama, a pivotal prose form in the Arab intellectual tradition. Unlike Eastern authors, Andalusians did not primarily focus on this genre but instead excelled by infusing their maqamat with critique. This research explores the artistic frameworks and the distinct critical dimension that characterize the Andalusian maqama. It posits that geographical differences influence literary expressions, making the Andalusian maqama innovative and critical, a practice less common in the East. However, the rhetorical and stylistic richness of the maqama may not ideally suit intricate critique, which requires a more empirical and precise language.

Keywords: Andalusian maqama; criticism; Ibn Fatooh; Ibn al-Shouheid; al-Sarqasti

مقدمة:

لم تزل المقامة الأندلسية اهتمام الباحثين والدارسين كما نالت فنون النثر الأندلسي الأخرى، رغم أن كتاب المقامة في هذا القطر الجغرافي استطاعوا أن ينفخوا فيها شيئاً جديداً إذ إنهم خرقوا قواعد المقامة أسلوباً وسرداً. وعليه فالمقامة الأندلسية ليست تقليداً ومحاكاة لأختها المشرقية ذلك أنها اتخذت لنفسها منحى آخر الخصوصية والتميز عن المشاركة بإد عليه.

ومنه سنحاول في هذا المقال توضيح الآليات التي تقوم عليها المقامة الأندلسية وكذا تبين كيفية تجلي القضايا النقدية فيها، حيث سيتم تقديم بداية دراسة في البناء المفاهيمي وذلك بعرض أهم خصائص المقامة الأندلسية، لننتقل بعدها ونبرز بالتحليل والاستقراء كيف تناول أصحابها القضايا النقدية.

أولاً: المقامة الأندلسية (دراسة في البناء المفاهيمي):

1- أهم رواد المقامة الأندلسية:

- أ - عبد الرحمن بن فتوح (ت 467 م): له مقامة واحدة أوردها صاحب الذخيرة¹.
- ب - أبو حفص عمر بن الشهيد (382هـ - 426هـ): حفظ ابن بشار فصولاً من مقامته الطويلة².
- ج - أبو محمد مالك القرطبي (ت 474 هـ): حفظ ابن بشار فصولاً من مقامته الطويلة³.
- د - أبو الوليد محمد بن المعلم: حفظ ابن بشار مقامة له⁴.
- هـ - محمد بن يوسف السرقسطي (ت 538 هـ): له خمسون مقامة عارض بها الحريري⁵.
- و - محمد بن عتياض القرطبي⁶: له مقامة واحدة تعددت الآراء في تسميتها⁷.
- ز - أبو عبيد الله محمد بن شرف القيرواني (390هـ - 460هـ)⁸: حفظ ابن بشار مقامتين اثنتين له:
- الأولى: طويلة موضوعها التقدي الأدي.
- الثانية: قصيرة موضوعها الأدب الماجن⁹

2 - خصائص المقامة الأندلسية:

أ- بنية المقامة:

إن كتاب المقامات الأندلسية خرجوا عن نهج المقامة المعروف عند الهمداني والحريري، فقدمات مقاماتهم تتباين من مقامي لآخر ومن الأمثلة على ذلك:

- ابن الشهيد: استهل مقامته بمقدمة عن أصول الكتابة.
- ابن فتوح: ابتدأ مقامته بعرض حادثة وقعت له.
- ابن شرف القيرواني: بدأ بمقدمة عرض فيها منهجه وطريقته في الكتابة.
- السرقسطي: كان مقلداً للحريري، فهناك مقامات افتتحها بقوله: (حدث المنذر بن حماد: قال: حدث السائب بن تمام) أما المقامات الأخرى فكان يفتتحها بـ (قال:). بالمقابل نجد بديع الزمان الهمداني وهو إمام هذا الفن استهل مقاماته بـ "حدثنا عيسى بن هشام" ولم يجد عن هذا الافتتاح إلا في مقامتين، بينما الحريري توقع افتتاحه فنليه يقول: "حكى الحارث بن همام، "أخبر الحارث بن همام"، "حدث الحارث بن همام"، "روى الحارث بن همام".

ب- الراوي والبطل:

إن أهم ما يلفت انتباهك وأنت تقرأ المقامات الأندلسية هو عدم وجود بطل وراو محدّد للمقامة، وإن كانت هناك مقامات سارت على خطى المقامات المشرقية في وجود راو للمقامة وبطل، وسيتضح ذلك فيما يلي:

* المقامات التي لم تقم على المعارضة:

- مقامة ابن فتوح: أخذ فيها صاحبها دور الراوي ونصب نفسه بطلا لها.
- مقامة ابن الشهيد: جعل من نفسه بطلا لها.
- مقامة ابن مالك القرطبي: خالية من العنوان والراوي والبطل.
- مقامة ابن شرف القيرواني: يشارك فيها صاحبها البطل أبو الريان الصلت في إدارة الحوار ويغيب الراوي في مقامته.

- مقامة ابن العيد المربع الأزدي: تقمص مبدعها دور الراوي والبطل معا¹⁰.

* المقامات التي قامت على المعارضة:

- المقامات اللزومية للترقسطي: كتب الترقسطي خمسين مقامة عارض بها الحريري إذ بناها على لزوم ما لا يلزم، بطلها هو الشيخ أبو حبيب السدوسي أما راويتها فهو السائب بن تمام الذي يكنى بـ "أبي الغمر" بينما المنذر بن حمام فهو راوية ثانوي لا دخل له في أحداث المقامة.
- مقامة ابن أبي الخصال: اختار صاحبها الحارث بن همام راوية لمقامته والسروجي بطلا لها، تماما مثل الحريري.

ج - حجم المقامة:

تبين المقامة الأندلسية قدرة المقامي الأندلسي على التجديد حيث إنه لم يلتزم بالقواعد الهمدانية على غرار الطول (هناك مقامات غاية في الطول وهناك مقامات قصيرة جداً)، كما أنه إذا قرأت للبديع أو الحريري وجدت لكل واحد منهما خمسين مقامة وهذا ما لا تجده عند أغلب كتّاب المقامات في الأندلس.

فابن شرف ألف مقامة من إحدى وأربعين صفحة أما ابن الشهيد وابن المعلم فقد أورد ابن بسام في ذخيرته فصولاً من مقامتهما لا شيء آخر إلا لطولهما* ولابن الخطيب مقامتين طويلتين هما "السياسة" و"الإشارة إلى أدب الوزارة"، بالإضافة إلى مقامة ابن أبي الخصال التي عارض بها الحريري جاءت في ثلاثين صفحة، ولا يكفي المقام هنا لذكر كل مقامي على حدة. أما المقامات القصيرة فهي أيضاً موجودة وأحسن مثال يساق لذلك مقامة ابن فتوح، ولا يفوتنا التنبيه هنا أنّ المقامات اللزومية للترقسطي تمثل نموذجاً عن المقامة الأصل.

وقد أشار إحسان عباس إلى أنّ المقامة الأندلسية لم تكن صورة طبق الأصل عن المقامة المشرقية فذكر أنّه "من مجموع ما وصلنا من هذه المقامات يستطيع الدارس أن يتبين حقائق محدّدة عن طبيعة المقامات الأندلسية، فقد انتفت من بعضها قصة الكدية والحيلة المقترنة بها، وأصبحت صورة من رسالة يقدّمها شخص بين يدي أمير يريجه، أو أمل يجب تحقيقه، كما أنّ كثيراً من المقامات الأندلسية أصبح وصفاً للرحلة، والتثقل في بلاد الأندلس، وفي هذا أيضاً شاركت الرسالة وكان بعضها يمثل الاتجاه النقدي، أو مواقف المفارقة والمنافرة، أو يؤدي بعض الموضوعات الشعرية كالغزل والمدح والهجاء"¹¹.

ثانيا: القضايا النقدية في المقامة الأندلسية

1 - قضية الشعراء

أ - ابن فتوح

ألف ابن فتوح مقامة لا تتجاوز الصفحتين واختار أن يكون هو الزاوي لها فقد تحدّث فيها عن حادثة وقعت له في رمضان، وبينما هو يطوف بالجامع بالمرية مردّدا بيتا من الشعر أقبل عليه فتى سائلا عن سبب ترديده له، فأجابه أنّ فراق الحبيب والأثر الذي تركه في نفسه هو ما أدى به إلى ذلك، فما كان من الفتى إلا الدّعاء له والانصراف ثمّ الرجوع إليه فجر اليوم التالي. حين التقيا لم يجدا ما يمضيا به وقتها إلا ذكرهم لشعراء عصرهم، فكان ابن فتوح هو الحبيب عن أسئلة الفتى، وقد اقتضت المقامة على أربعة شعراء من الأندلس: ابن برد، ابن شهيد، ابن زيدون، إبراهيم بن يحيى الطنبلي، فأبدى رأيه في كل واحد منهم.

استطاع ابن فتوح أن ينقل للقارئ بعض أعلام الأدب الأندلسي الذين شاركوا في صنع تاريخه بفضل ما جادت به قرائحهم ودونت أقلامهم فهذا "أعذبهم لفظا، وأرجحهم وزنا... الرقيق حاشية الظرف: الأنيق ديباجة اللفظ، أبو حفص ابن برد"¹² يتجنب الألفاظ الصعبة الغامضة ويجتذ اللغة الفصيحة الحالية من التثنيق والتعقيد، ويرى في بساطة المعاني تقريبا لفكر القارئ، ومن يقرأ شعره يلتمس الجودة اللفظية التي تميزه عن غيره إذ كان " في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر نث فيها بسحره، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره، وله إليه طروق، وفي عروقتها الصالحات عروق"¹³. فابن برد على الرغم من قلّة أشعاره إلا أنّه استطاع ركوب قافلة الكبار، إذ العبرة ليست بالكم وإنّا بالكيف، فقد هام بجمال الأندلس وطبيعته التي تأسر الأبواب فأنتج شعرا يحقّ النظر فيه.

أما "أقواهم استعارات، وأصحهم تشبيهات، ... البحر العجاج، السراج الوهاج أبو عامر ابن شهيد"¹⁴ صاحب القدرة الفائقة على التصوير الذي يتقن استعمال ألوان البيان، فمن يقرأ شعره يجده سجلا لتغيراته النفسية وآلامه التي استطاع أن ينقلها للقارئ ويؤثر فيه بخياله الخصب.

فأسلوبه الرافي وقدرته على صناعة الشعر والنثر جعلاه من أعلام البلاغة في الأندلس فقد كان " فارس النظم والنثر، وأعجوبة القرآن والعصر، ونهاية الخبر والخبر، رقم برود الكلام، ونظم عقود النثر والنظام"¹⁵ من أفضل الشعراء شاعرية وأوسعهم خيالا، شته فأصاب واستعار فأجاد.

وعلى هذا النحو يمضي ابن فتوح في بيان آرائه في شعراء عصره، وأبناء بلده، فيرى أنّ "أذكرهم للأشعار وأظلمهم للأخبار... الحلو الطريف، البارع اللطيف، أبو الوليد ابن زيدون"¹⁶ فهو صاحب موهبة متدفقة جياشة أتاحت له القدرة على قول الشعر ونظم الأخبار، فبرع في الشعر كما برع في النثر حتى ذاع صيته مشارق الأرض ومغاربها، فقد كان له في الشعر الشيء الكثير، وهذا راجع للتجارب التي خاضها في حياته. ومن "أكلفهم بالبديع وأشغفهم بالتقسيم والتتبع...الراتع في روضة الحسب، المستطيل بمرجة الأدب، أبو بكر إبراهيم بن يحيى الطنبلي"¹⁷ الذي ولع بالبديع وفنونه فراح يبدج به أشعاره ويزين كلامه.

يمكن القول أنّ ابن فتوح أصدر أحكاما نقدية عامّة حول الشعراء، فأبدى رأيه في كل واحد منهم ذاكرا الصفة التي تميّز بها عن غيره، فابن برد أعذبهم لفظا، أما ابن شهيد أقواهم استعارات وأصحهم تشبيهات، بينما ابن زيدون أذكرهم للأشعار والطنبلي أكلفهم بفن البديع. ومن المهمّة الإشارة في هذا الصدد أنّ ابن فتوح في مقامته لم يقيم بإحماض ما أتى به

أبناء عصره من الشعراء ولم يزدحم تهميشاً، وإنما ذكر ما به يعرفون ولو بالترنر اليسير، وهذا دليل على أندلسيته واعترافه وإقراره بالإنتاج الشعري للأندلسيين.

ب- السرقسطي

خصّص هذا الأندلسي صاحب المقامات اللزومية مقامته الثلاثين - أطول مقامة عنده - للحديث عن الشعراء، فقد أعطى رأيه في أكثر من أربعين شاعراً منذ الجاهلية إلى عصره، كما بين الجوانب البارزة في شعرهم. والسؤال المطروح هو كيف تعرّض السرقسطي إلى هؤلاء الشعراء في مقامته؟ هل كان فعلاً ناقدًا يحكم على الشعراء أم كان يعطي إشارات خاطفة عنهم؟ هل أتى بجديد أم أنه أعاد ما هو مبثوث في كتب الأدب والنقد؟

بدأ السرقسطي مقامته بالحديث عن أشهر شعراء العصر الجاهليّ، امرؤ القيس، طرفة بن العبد، زهير بن أبي سلمى، عنترة العبسي، علقمة الفحل، الأعشى، إذ تجده يقول مثلاً: هذا "جني في جلدة إنسيّ، عنترة الفوارس، لله من مجرب ممارس، إذا وصف الضراب والطعان أو احتمل الهوداج والأطعان، فما شئت من فارس نسيب، وهجين حسيب ينسب فيحسب، ويفخر فيزخر"¹⁸. ومن الشعراء المخضرمين يذكر السرقسطي اللسان المبين، المناخ عن الدعوة الإسلامية "الحزرجي حسان...حُسن وإحسان، ويمن وأمان، وبر وإيمان، أبو ثابت ما أبو ثابت، أزرجي بكل رأس وثابت، أكرم به من ظاهر ندس، أيد بروح القدس، طاول وناخ، ودافع عن الدين وكاف فهو بالحسنى فائز وللرضا حائز"¹⁹ فقد كان لشعره دور يفوق السيوف والرماح والفرسان.

أما عن العصر الأموي فقد اختار السرقسطي الثنائي جرير وفرزدق لشهرة وحدة الصراع الذي نشب بينهما ولم ينته إلا بنهايتهما فـ "الفرزدق سيّد هُمام...بجر لا يُخاض غماره وجواد لا يُتعاطى مضاره، ينحت من صخر، وينطق عن فخر، وأما جرير فسابق درير...صعب فذلل، وأكثر فقلل، وأعوص فبين، وشدد فلين، يغرف من بحر، وينطق عن سحر، يباري برقته النسيم، ويبرز من قوله الترائق والوسيم"²⁰، فقد وازن بينهما وذكر أنّ الهمام أكثر مجيد ومطيل، أما جرير سلس الكلام رخو العبارات. والأمر الملاحظ هنا هو أنّ هذه الأخبار التي ساقها لا تختلف عما تحويه مختلف كتب النقد العربي القديم، فقد وقف عند تراجم الشعراء واطّلع عن كلّ ما قيل عنهم، ومن ثمة أعاد رصدها في مقامته. وهو بهذا لا يضيف شيئاً جديداً.

وهكذا يمضي هذا التّميي في بيان آرائه حول الشعراء حتى يصل إلى المحدثين الذين تفتّنا في ضروب البيان والبديع واستخدموا الألفاظ الرقيقة التي تتلاءم ورقّة الحضارة التي كانت آنذاك فـ "الصريع مُسلم... ذلك الفارس المعلم، بيدّ الأقران، ويحدّ الحبال والأقران أول من حبر ونمّم، وعلا ذروة الإبداع وتسّم، خفّ إلى الصّباية وأسرع حتى صرعه ما صرع"²¹ إلى غير ذلك من الشعراء الذين يطول ذكرهم. والقارئ لهذه المقامة سيجده يفضّل القدامى من الشعراء على المحدثين.

يتضح مما سبق أنّ معظم ما جاء به الرّجل مبثوث في كتب الأدب العامة والتّراجم والمختارات، كما أنّ أغلب آرائه حول الشعراء لم تكن نقدية بالمعنى الدقيق، فالقارئ لمقامته لا يلقي ذلك الناقد المتخصّص الذي يقف عند نقاط محددة ثم يصدر حكماً ويعلّله، ولا يفوتنا التنبية أنّه لم يكن ناقدًا عكس ابن شرف الذي كانت له آراء نقدية في غير مقامته.

يمكن اعتبار مقامة السرقسطي تعليمية في رصف أساء الشعراء والإحاطة بأحوالهم أكثر منها نقدية، لأنه لم يُصدر حكماً نقدياً وإنما قدّم وصفاً للشعراء وشعرهم، مع تبين موقفه من المحدثين والقدامى منهم وهو انتصاره للقديم، لكن الأمر الذي يُشهد له به هو اطلاعه الواسع على أخبار الشعراء المشاركة على اختلاف عصورهم مما يدلّ على قدرته التي يتمتع بها والتي لا تتأقّق لأيّ كان.

2- صناعة الكتابة

لقد استهلّ ابن الشهيد مقامته ذاكراً أنّ "صناعة الكتابة محنة من المحن ومحنة من المهن، والسعيد من خدمت دولة إقباله، والشقي من كانت رأس ماله، والعامل من إذا أخرجها من مثالبه لم يدخلها في مناقبه"²² فالكتابة محنة من المهن ووظيفة من الوظائف يمارسها الإنسان، وفي الوقت نفسه تعدّ محنة من المحن ومصيبة من المصائب عندما تصبح متداولة بين العامة، فالسعيد في نظر ابن الشهيد من رحبت التّولة بكتاباتهِ وأخذت بها، بينما الشقي من اتخذها وسيلة للتكسب والارتزاق، يروج لها كما يروج التاجر لسبعته، ويزيّف الحقائق لتحقيق مآربه الشخصية. ومتى كانت الكتابة لهذا الهدف؟

أما الذي لم يعدها من مساوئه ولا من مآثره فذاك هو العاقل "لاسيما وقد تناولها يد كثير من السوق وباعوها بين الخلق، فسلبوها تاج بهائها ورداء كبريائها وصيروها صناعة يكاد الكريم لا يعيرها لحظة ولا يفرغ في قلبها لفظه"²³. فالكتابة في عصر هذا الأندلسي أصبحت أداة للتقرب من السلطان وحاشيته، كما أنها فقدت رونقها ورواها خاصة بعد انسياق عمال الديوان من الأعاجم إلى الكتابة فتنافسوا في استخدام فنون البديع والبيان للوصول إلى أرقى المستويات البلاغية غير آبهين إن كانوا على صواب، مما أدى إلى هزال في كتاباتهم.

والحقيقة غير ذلك لأنّ الكتابة لها أسس تتوكأ عليها، لذا لا بدّ من إدراك تقنياتها ومن ثمّ الشروع في الكتابة، لكن إذا استأنست النعاج تستنزع الآساد²⁴ وهذا هو الواقع. فالمرء الذي يتبوأ منصباً ليس أهلاً له من أجل تحقيق مرمومه، سيظلم نفسه قبل أن يظلم من هو أحقّ بذلك، وكذلك هي صناعة الكتابة.

ويبين ابن الشهيد في فقرة أخرى ما تتطلبه هذه الصناعة وتستلزمه من آليات، ويوضح للقارئ ما يعتري الكاتب من مشقة وإرهاق في مهنته، فتراه يصوره بالجوهرية تارة وبالصانع تارة أخرى، يضيف إليها تشبيهه بالعقاب ف"البلغ كالجوهرية واجد التعب، في نظم الدر أو المخشبل وكالصانع واجد العناء، في سبك الصفر أو الفضة البيضاء وكالعقاب واجد الانهواء، على الصقر أو المكاء، والعامل من برز يوم السرور في زيّ الأعياد، ويوم الحزن في ثياب الحداد"²⁵ فإنّ هذه الصناعة ليس بالأمر الهين، وإنما يتطلب الجهد والكد لأنّ الكتابة بحر لا ساحل له، ومن أراد الغوص فيها عليه أن يتعلّم فنونها.

يتضح ممّا سبق أنّ ابتدال صناعة الكتابة في ذاك العصر هو ما دفع بابن الشهيد إلى إصدار ذاك الحكم النقدي (محنة من المحن) وفعلًا هي كذلك، لأنه إذا أصبح التاجر كاتباً، وأصبح أهل الأسواق كتاباً، فما مصير الكاتب؟ وما قيمة الكتابة التي عُذّت حرفه من الحرف؟ ويمكن القول أنّ ما قاله ابن الشهيد يدلّ على اهتمامه بأحوال عصره، ورفضه لتلك الأفعال، كتب عن هذه القضية في مقامته ليعبر عن موقفه النقدي منها.

3- التظم والتثر

جاءت المقامة الأربعين من مقامات السرقسطي في عشر صفحات، تحدّث فيها صاحبها عن قضية التظم والتثر من خلال المحاورة الطويلة التي دارت بين حبيب وغريب ابني ذلك الرجل البالي الشاب الذي نزل بجوار السائب بن تمام، حيث يدخل الفتيان في مناقشة حول الأفضلية بين هذين الفتيين فيحتمد الصّراع بينهما إلى أن يتدخل والدهما فيدافع عن كل فريق وينهاهما عن المفاضلة بين الشّعر والتثر ذلك أنّ كل واحد منهما لديه خصائصه وطبيعته، وأنّ جمالية الأداء والتعبير غير محصورة في أحدهما دون الآخر، فكل له مقوماته الفنية.

افتتح السرقسطي مقامته معترفا بصعوبة الخوض في هذا الميدان (التظم والتثر) متسائلا عن الأسبقية والأفضلية فيما بينهما قائلا: "سؤال أعنى الأول والآخر، والجاد والسّاخر، هذا التظم والتثر كيف القلّ فيها أو الكثر، وأي النصل (والحدّ) أو الأثر، وأيّها أعقب صاحبه أثرا وأحرز دونها أثرا، وأيّها في النفوس أوقع، وأشفى لغلة الصادي وأنفع، وأحظى عند السوقة والملوك، وأمضى في السفارة والألوك"²⁶.

ليبدأ بعدها بعرض الحجج والبراهين التي يستدلّ بها أنصار كلا الفريقين، فالذين يفضلون الشّعر يذهبون إلى أنّه "أصعب مرتقى، وأغرب منتقى، وأبرع لفظا، وأسرع حفظا وأوسع مجازا، وأنصح إيجازا...باعث الهمم والأفراح، وطارد الأحزان والأتراح"²⁷ فهو صعب لأوزانه وقوافيه، بالإضافة إلى لغته الشعرية التي تفيض بالخيال وشتى صور الانزياح، كما أنّه سهل الحفظ، يتوقّر على جاليات بلاغية تجذب انتباه القارئ دون شعور منه.

ومن محاسن الشّعر عند أي الطاهر أنّه موجود في العرب والعجم، لكن خصّ به العرب نظرا لاعتنائها الشديد به، فقد استحقته بكرم ألفاظها، وقياما عليه وحفاظها، ثم إنّه قد حكم الأكبر والأعظم أنّه ما عجز عن التثر ناظم وكم عجز في التظم ناثر²⁸ والحقيقة أنّ هذا الحكم فيه إقصاء من منزلة التثر ذلك أنّ الشاعر لا تعجزه الكتابة في الميدانين أما الناثر فإنه لا يتمكّن من ذلك.

وينتقل السرقسطي إلى التثر ليبين مآثره وحجج الذين ينتصرون له فهو "أيسر مطلبا وأدّر حلبا، وأطوع عنانا، وأنفذ سنانا، به تملك الممالك، وتسلك المسالك، وتخدم الرئاسة، وتقام السياسة وتضان الأحوال، وتحفظ الأموال، وبه تعبر العلوم...يوجه الكتاب ويحبب الجنايب ويدير الدول ويملك الخيل والحوّل"²⁹ فالتثر يوصف بالسهولة لخلوه من القوافي فضلا عن الدور الكبير الذي يؤديه في إدارة السلطة وخدمة الأمراء والملوك وحفظ أموال المسلمين، إذ الرسائل به تكتب والأخبار به تنقل إلى غير ذلك من الوظائف الكثيرة له.

ومن حججهم أيضا أنّ الشّعر يقوم غالبا على مخاطبة العاطفة وتصوير الأحاسيس والمشاعر للتأثير في نفوس القراء والسامعين، أمّا التثر فيخاطب العقل وينقل الحقيقة بلغة محكمة، ثم إنّ هؤلاء يستدلون بالآية القرآنية التي نزلت لتفني الشعرية عن النبي محمد صلى الله عليه "وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ" إِنَّ هُوَ إِلَّا ذَكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ" يس (69)، وفي نظرهم معجزة النبي الخالدة لم تكن بالشّعر فكفى النثر فخرا أن نزل القرآن بأسلوبه الذي أعجز العالمين.

إن الجدال بين أصحاب التظم والتثر أسال مداد الكثير من النقاد والتارسين والحق أنّه لا يوجد بين الفتيين تفاضل، فكل فنّ له حضوره وروقه الذي يميّزه عن غيره، إلى جانب ذلك نجد "من الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن: كثوم بن عمود بن عمرو العتالي...ومن الخطباء الشعراء الذين قد جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار والكتب الكبار المخلّدة والتّبر الحسان المدوّنة والأخبار المولدة:

سهيل بن هارون³⁰ وهذا الاختلاف القائم بينهما ما هو إلا ثراء للأدب والتقد ودليل على اتساع الفكر النقدي القديم، كما أن الشاعر كونه شاعرا لا يعني عدم قدرته على الكتابة التثريّة والعكس صحيح.

لقد أعطى هذا التمييز في مقامته رأيا توفيقيا حيث إته أثنى على كل واحد منها ف" الشعر فحل عقيم وسفر مقيم، ومبغض مودود... وإن شابه كذبا ومينا، فقد أغضوا عليه عينا وإنما حمده أوفر من ذمه، وشهده أكثر من ستمه..."³¹ ففضائله أكثر من مثالبه ولهذا لا يضّر إن طعن فيه.

"أما التثر فأثنى ولود، وزند لأكاب ولا صلود، عين ثرة، وأمّ برة... هو الدر منظوما أو منثورا، والحكم متروكا أو مأثورا، وما يضّر الدر إن لم تنظمه النواظم، وقد فضّله الأكابر والأعاصم"³² فرغم افتقاره للأوزان إلا أنه غني بالفاظه المنيّنة وثرى ثراء يسمح له بالحفاظ على مكانته.

لقد بين الرجل في مقامته أن لكلّ منها وظيفة ومميزات خاصّة به، كما أن بناء التثر يختلف عن بناء الشعر نظرا للاختلافات الجوهرية بينهما، ثم وجه إلى كلا الفريقين دعوة مفادها "لا تفضّلا قائلا على قائل، إلا بفضل فاضل وطول طائل، والإحسان ضروب والشمس طلوع وغروب... وخذا في كل الأحوال بالأعدل الأقسط، وميلا إلى السهل والأبسط، ولا تعدلا عن السواء الأوسط"³³. ومما تجدر الإشارة إليه هنا هو أن هذا الأندلسي قدّم نصيحة ممثلة في الأخذ بالسهل والأبسط وهو لم يلتزم بها، فقد حشد مقاماته بالآلفاظ الغريبة مع التعقيد في العبارات وهذا ما يجعل الأمر عسيرا على القارئ.

يتبدّى مما سبق ذكره أنه لا يوجد بين الفئتين أي تفاضل، فكل فنّ له حضوره ورونقه الذي يميزه عن غيره، ولقد ظلّ الشعر لأمد بعيد صاحب سلطان على الناس لكن تغيرت الموازين ففي العصر الحالي أصبحت الرواية أكثر فنون الأدب ذيوعا.

إنّ السّرقسطي لم يعالج القضايا النقدية بالوجه الذي يُراد به ذلك أن أسلوب المقامة لم يسمح له، كما أنه ليس متمرّسا في مجال النقد لأنه كان أديبا مهتما بالغة وأسرارها وقواعدها. ولقد جمع أبو الطاهر في مقامته بين التنظيم والتثر معا، وذلك بتضمين مقامته أبيات شعرية وهذا دليل على الدّود عن هذين الفئتين، من جهة أخرى برهان قاطع على قدرته الفائقة على الخوض في الميدانين.

خاتمة

بعد أن عرضنا أهمّ القضايا التقديّة التي تناولتها المقامة الأندلسيّة والمتمثلة في: الشعر والشعراء، صناعة الكتابة، التنظيم والتثر، نخلص في نهاية هذا المقال إلى ملاحظة بعض النتائج المهمّة التي لا يمكن التغافل عنها، نذكر منها:

(1) يمكن القول أن الأندلسيين قد تأثروا بفن المقامة الذي سطع نجمه في المشرق فاعترفوا منه، بيد أنهم لم يسيروا على النهج الذي عرفوه، ولهذا تجد أن المقامة الأندلسيّة لم تلتزم بالقواعد الهذائيّة، فالحجم تغير والزواوي والبطل غيّبا في أغلب المقامات، بالإضافة إلى أن أغلب الذين كتبوا في هذا الفنّ ألّفوا مقامة واحدة أو اثنتين على غير العادة، ويمكن اعتبار هذا الأمر علامة تجديد عندهم.

(2) على الرغم من التمييز الذي حقّقه هؤلاء إلا أنهم لم يرقوا إلى مستوى الهمداني في الكتابة المقاميّة.

(3) إنّ المقاميّ يشغل بكيفية إيصال المعنى، أي أنه يهتمّ بالجمالية التعبيريّة (السجع والجناس إلى غير ذلك من المحسنات) على حساب الموضوع التقديّ الذي تناوله، كما أن أغلب المقاميين لم يكونوا أصحاب مقولات نقدية عكس النقاد الذين يُعملون فكرهم وعقلهم لإصدار حكم أو تعليقه.

- 4) التقد عبارة عن أحكام ومعايير تتّسم بالمنطق والعقلنة وهذا ما يحتاج إلى لغة أكثر علميّة، ولأنّ المقامة تتوكأ في بنائها على مختلف ألوان البيان والبدیع فإنّها لا تستطيع معالجة قضايا نقدية أو الخروج بآراء دقيقة.
- 5) التقد لا يخدم المقامة لأنّ لكلّ منها آليات وتقنيات يقوم عليها، وخصائص كلّ واحد تختلف تمام الاختلاف عن الآخر، كما أنّ المقامة لا تسمع بالتحليل والتعمّق.
- 6) إنّ البحث في هذا المجال مازال مفتوحاً أمام الأعلام التي تزوم المساهمة في ذلك، والمغاربة هم الأولى بهذا الأمر، لذا يتوجّب عليهم فتق شرقية أدبهم والنهوض به

الهوامش والإحالات:

- 1 ينظر في ترجمته: محمد بن عبد الله ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهزاس، دار الفكر، بيروت - لبنان، دط، 1995 م، ج3، ص11. أمّا نص المقامة ورد عند: أبي الحسن علي بن بشار الشننيري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت - لبنان، دط، 1997، ق1، مج2، ص786 - 787.
- 2 ينظر في ترجمته: أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، أعلام مالقة. تحقيق عبد الله الميراثي، دار الأمان الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1999م، ص326 - 327. أمّا نص المقامة ورد عند: ابن بشار، الذخيرة، ق1، مج2، ص674 - 685.
- 3 ينظر في ترجمته: ابن بشار، الذخيرة، ق1، مج2، ص739 - 740. أمّا نص المقامة ورد في المصدر نفسه، ق1، مج2، ص741 - 752.
- 4 ينظر في ترجمته: ابن بشار، الذخيرة، ق2، مج1، ص112 - 113. أمّا نص المقامة ورد في المصدر نفسه، ق2، مج1، ص113 - 118.
- 5 ينظر في ترجمته: خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط15، 2002، ج7، ص149. أمّا نص المقامات ورد عند: أبي الطاهر محمد بن يوسف الترقسطي، المقامات اللزومية، تقرير حسن الوراكي، عالم الكتب الحديث جدار للكتاب العالمي عمان - الأردن، ط2، 2006 م.
- 6 ينظر في ترجمته: ابن الآبار، التكملة، ج2، ص42-43.
- 7 ورد نص المقامة عند: ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف - القاهرة - مصر، ط4، 2009 م، ص344 - 345 باسم المقامة "الدوحية" أما ابن الآبار في التكملة فقد سبأها "المقامة العياضية الغزلية" ج2، ص42.
- 8 ينظر في ترجمته: ابن بشار، الذخيرة، ق4، مج1، ص169 - 171. وقد جعلناه أحد المقامين الأندلسيين لأنّه كتب مقامته النقدية (أعلام الكلام) في الأندلس وقد توفي بها، وهو بهذا الاعتبار أندلسي. ينظر: ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، تحقيق وتصحيح عبد العزيز أمين الحانجي، ط1، مطبعة النهضة، مصر، 1926م، ص14.
- 9 ورد نص المقامة الطويلة عند: ابن بشار، الذخيرة، ق4، مج1، ص197-211. أمّا القصيرة فقد ذكرت في المصدر نفسه، ق4، مج1، ص212 - 214.
- 10 ورد نص المقامة عند: محمد لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ، ج3، ص225-232.
- * بعد الحذف والتجزئة جاءت مقام ابن شهيد في اثني عشر صفحة ومقامة ابن المعلم في خمس صفحات مما يدل على أنّهما كانتا فعلاً تتّسم بالطول. وللاستزادة حول ما جاء عن المقامة الأندلسية ينظر: يوسف نور عوض، فنّ المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت - لبنان، ط1، 1979.
- 11 إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عهد الطوائف والمرايطين)، ط2، دار الشروق، عمان، 1997، ص246.
- 12 ابن بشار، الذخيرة، ق1، مج2، ص787.
- 13 المصدر نفسه، ق1، مج1، ص486.
- 14 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص787.
- 15 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص670 - 671.
- 16 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص787.

- 17 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 787.
- 18 الشرقسوطي، المقامات اللزومية، ص 267.
- 19 المصدر نفسه، ص 268.
- 20 المصدر نفسه، ص 269-270.
- 21 المصدر نفسه، ص 274.
- 22 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 674.
- 23 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 674.
- 24 ينظر: المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 674.
- 25 المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 675.
- 26 الشرقسوطي، المقامات اللزومية، ص 372-373.
- 27 المصدر نفسه، ص 373.
- 28 المصدر نفسه، ص 373.
- 29 المصدر نفسه، ص 375-376.
- 30 عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط2، دس.
- 31 الشرقسوطي، المقامات اللزومية، ص 377.
- 32 المصدر نفسه، ص 377-378.
- 33 المصدر نفسه، ص 378.

المصادر والمراجع:

1. ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة - مصر، ط4، 2009.
2. ابن شرف القيرواني، أعلام الكلام، تحقيق وتصحيح عبد العزيز أمين الخانجي، ط1، مطبعة النهضة، مصر، 1926م.
3. أبو الحسن علي بن بتمام الشنتيري، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة بيروت - لبنان، دط، 1997.
4. أبو الطاهر محمد بن يوسف الشرقسوطي، المقامات اللزومية، تقرير حسن الوراكلي، عالم الكتب الحديث جدار للكتاب العالمي عمان - الأردن، ط2، 2006 م.
5. أبو عبد الله بن عسكر وأبو بكر بن خميس، أعلام مالقة، تحقيق عبد الله المرباط الترغي، دار الأمان الرباط، دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، ط1، 1999م.
6. ³³ إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي (عهد الطوائف والمرابطين)، ط2، دار الشروق، عمان، 1997، ص246.
7. عمرو بن بحر الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت - لبنان، ط2، دس.
8. خير الدين الزركلي، قاموس تراجم الأعلام لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان، ط15، 2002.
9. محمد بن عبد الله ابن الآبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهزاس، دار الفكر، بيروت - لبنان، دط، 1995 م.
10. محمد لسان الدين بن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 1424هـ.
11. يوسف نور عوض، فنّ المقامات بين المشرق والمغرب، دار القلم، بيروت - لبنان، ط1، 1979.